

١٦

سقوط مفهوم القومية الوافد

أنور الجندي



على طريق الأصالة الإسلامية

١٦

سقوط مفهوم القومية الوافد

بقلم

أنور الجندي

دار الأنصار

مكتبة - طباعة - نشر - توزيع

٨٦ شارع البستان ناصية شارع الجمهورية عابدين

ت ٩٣١٥٨١

سقوط مفهوم القومية الوافد

كشفت الأبحاث الجادة التى قام بها باحثون محايدون ، أن نظرية القوميه العربية التى طرحت فى أفق الفكر الإسلامى ، كانت بمثابة مؤامرة استهدفت تمزيق الوحدة الإسلامية ، السياسية والإجتماعية والفكرية ، وأنها هى أخطر المحاولات لتفريق عقد الأمة الإسلامية ، التى كانت مترابطة تحت كلمة التوحيد . وقد جاءت هذه الأبحاث بعد ركام ضخم من الكتابات والدراسات ، التى قدمت منذ الثلاثينات من هذا القرن ، بهدف تدمير وحدة العروبة والإسلام الجامعة ، التى كان يصدر عنها رجال العمل السياسى فى البلاد العربية .

كانت الدعوة إلى القومية ، بمثابة دعوة إلى الإقليمية أولا ، فى الأقطار التى لها تاريخ قديم سابق للاسلام ، وكانت من ناحية أخرى كمحاولة لفصم عرى العروبة والإسلام ، فقد استعملت كلمة القومية بمفهوم الإقليمية فى مصر باسم الفرعونية ، وفى

سوريا باسم الفينيقية ، وفى العراق باسم الاشورية والبابلية ، وفى المغرب باسم البربرية .

وتركزت حول هذه الدعوى دراسات مضللة ، قام بها مستشرقون يتبعون وزارات الاستعمار فى فرنسا وانجلترا مستهدفين إحياء هذه النحل التى قضى عليها الإسلام ، حين جاء قاطعاً لذلك الارتباط القديم الذى يفرق بين اجتماع أمة الإسلام وبين ارتباطها وتاريخها ولغاتها القديمة .

الإبعاد والتفسيرات :

وحتى نعرف أبعاد قضية القوميات وتفسيراتها الوافدة ، يجب أن نراجع نصاً تردد على ألسنة الكثيرين من دهاقين السياسة فى أوائل هذا القرن ، يلخصه الدكتور « صموئيل زويمر » كبير المبشرين البروتستانت فى الشرق فى قوله : « إن أول ما يجب عمله للقضاء على الإسلام هو إيجاد القوميات » .

ولقد كان أول عمل بدأت به الإرساليات التبشيرية فى بيروت هو الدعوة إلى العروبة بهدف تمزيق وحدة العرب والترك ،

القائمة تحت لواء الخلافة العثمانية ،

وكان حملة هذه الدعوة هم مسيحيو لبنـــان ، الذين كانوا يطالبون بكيان مستقل داخل الدولة العثمانية ، ثم ظهرت الدعوة إلى القومية التركية ، تحت اسم الطورانية عن طريق حزب الاتحاد والترقى ، بهدف إخراج تركيا من طابعها الإسلامى ، فلما نجح حزب الاتحاد والترقى فى الوصول إلى الحكم أخذ يعمل على تتريك الشعب وتحويل المحاكم والمدارس ودور الحكم إلى اللغة التركية والقضاء على اللغة العربية ، ومن هنا بدأ العرب فى المملكة العثمانية فى الدفاع عن أنفسهم فنشأت الدعوة إلى العروبة ، فلما سقطت الدولة العثمانية اتخذ العرب من الترابط تحت اسم العروبة أسلوباً من أساليب مقاومة النفوذ الأجنبي .

تفسير غربى:

غير أن الاستعمار والنفوذ الأجنبى، عمد إلى طرح مفهوم للعروبة مستمد من مفهوم القوميات الغربية استشرى أمره وحاول أن يقضى على ترابط العروبة والإسلام، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فإن الفكر الوافد حاول أن يطرح عدة نظريات، ليمزق وحدة الفكر

الإسلامى ، ويحول به دون الإلتقاء فى كيان جامع موحد ، فكانت هناك الدعوة إلى القومية الوطنية ، وتمثلت فى الدعوة إلى القومية اللبنانية والقومية السورية والقومية المصرية ، وكانت هناك دعوة القومية المستمدة من مفهوم النظرية الألمانية أو النظرية الفرنسية ، وإحداهما تعتمد اللغة أساساً لها ، وتعتمد الأخرى مفهوم المشيئة .

ولم تكن الدعوة إلى القومية الوطنية فى حقيقتها إلا دعوة إلى الاقليمية فى محاولة لاعطاء هذه الاقليميات طابع القوميات.

التحريف:

ثم لما برز طابع العروبة ، الذى كان هو منطلق سوريا والعراق والحجاز فى مواجهة الطورانية أولا ، ثم فى وجه الاحتلال الفرنسى لسوريا ولبنان ثانياً ، كموقف مفروض لا محيد عنه هنالك رأت حركة التغريب أن فكرة العروبة بمفهومها الاسلامى التى أخذت تترعرع ، بمثابة خطر جديد عليها فأخذت تتدخل فيها لتحريفها وإفسادها ، وذلك بعد أن فشلت دعوة الإقليميات لذلك فقد عمدت إلى طرح نظرية القومية العربية وحشدت لها

حشوداً ضخمة ، بهدف زعزعة المقومات الأصيلة ، وتعرية العروبة من كل مفاهيمها المرتبطة بالإسلام سواء على صعيد السياسة كالترابط والانفتاح بين الأمم الإسلامية ذات التاريخ والثقافة والعقيدة الواحدة ، والتي تجمعها منذ خمسة عشر قرناً أرضية ثابتة ورصيد ضخم .

ماذا يريدون ؟؟ :

كانت النظرية الغربية فى القومية تريد أن تحمل معها ثلاثة محاذير خطيرة :

أولا : طابع الاستعلاء الجنسى للفاق فى مواجهـــة الأمم الإسلامية .

ثانياً : طابع الانعزال الكامل عن التاريخ والتراث والمقومات الاسلامية .

ثالثاً : خلق وجود معاصر منفصل تماماً عن الاسلام وعن العالم الاسلامى متصل بالغرب ، مندغم فى تفسيراته وقيمه وطوابعه .

وماذا غاب عنهم :

وقد غاب عن الذين طرحوا النظرية الغربية فى القومية ، أن هناك عاملا ضخما لا سبيل إلى تجاهله أو إغفاله من أى نظرة علمية ذلك هو الطابع الفكرى العميق الذى صاغه الاسلام للتشكل العربى، فى أولى مراحل وجود العرب كأمة، بعد أن كانوا مجموعة من القبائل المتصارعة ، وأن هذا الطابع قد أقام حداً فاصلا عميقاً (فكرياً وسياسياً واجتماعياً) بين ماضى العرب والمصريين والشاميين والعرب والمغاربة جميعاً ، وكل من عاش فى هذا العالم الممتد، الذى سيطر عليه الاسلام وشكله الفكر الاسلامى ، وخاصة تلك المنطقة التى تعربت وأصبحت تسمى عالم العروبة، وأنه لا سبيل إلى اعادة هذه الأمم الى ماضيها القديم ، بعد أن نقلها الاسلام ، تلك النقلة الواسعة من الأساطير والوثنيات والعصبيات والصراع الفكرى والفراغ الاجتماعى ، الى ذلك الطابع المتكامل من التوحيد والعدل والحق والمقومات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والقانونية الواضحة فى ذلك النظام المحكم الذى نزل به القرآن ورفع لواءه الاسلام .

متى بدأوا ؟ :

فى عام ١٩٤٠ تقريباً بدأت عملية طرح النظرية الغربية فى القوميات وظهرت أقلام تتحدث عن فلسفة القوميات ، وتشكلت هذه الفلسفة على هيئة المؤسسات وأحزاب ومدارس فكرية ، وبدأت نقطة انطلاقها من لبنان ومن خلال خريجى معاهد الارساليات ، والعائدين من بعثات تعليمية أجنبية ، واتخذ بعضهم الأسلوب المجنح الحالم الصوفى، الذى يحاول أن يعطى كلمة القومية العربية مفهوم العقيدة الدينية ، ويروج لها فى اطار من المزامير والموسيقى والأناشيد والتراتيل، على نحو يؤثر فى نفوس الشباب الطامح المتوقد حماسة الى مثل أعلى وفكرة ومنهج حياة.

وقد شاء أصحاب الدعوة ، أن يرجعوا التاريخ المكتوب الذى عاشته العروبة فى كنف الاسلام ، أن يرجعوه القهقرى من جديد ، ليدخلوا فيه كلمة القومية التى لم يكن يعرفها ، والتى لم تجر على الألسنة والاقلام الا فى أوائل هذا القرن الميلادى ، والتى يندر أن يوجد نص مكتوب لاديب او مفكر أو شاعر يتخذ من كلمة (ق و م) شعاراً له أو منطقاً فى قصيدة أو مقال أو كتاب .

محاولة زائفة :

ذلك أن أصحاب هذه الدعوة لم يكفهم أن يقولوا كلمتهم اليوم . ولكنهم حاولوا أن يقيموا لها تاريخا طويلا يمتد المدى ، يسبق ظهور الإسلام ويمتد بعده ، ولا شك أن تلك المحاولة كانت باطلة وزائفة ، ذلك لأنه لم يكن هناك إلا تاريخ واحد ، هو تاريخ الأمة الإسلامية ، والعرب جزء منه ، ولم يكن هناك ما يفرق بين العرب والمسلمين خلال ذلك التاريخ الطويل ، الذى كان العرب والترك والفرس والهنود فيه كلا متكاملا .

ولاريب أن تفسير التاريخ الإسلامى تفسيرا قوميا ، كان مضللا وكاذبا ، حيث لم يكن هناك انفصال بين الإسلام والعروبة إلا بعد الاحتلال الأجنبى وانفصال الدولة العثمانية عن العرب .

كذلك فقد كان هدف دعاة القومية أن يفصلوا العرب عن الفكر الإسلامى ، وعن الامتداد الإسلامى ، وأن يخلقوا كيانا عربيا جامدا يعود بالعرب إلى كنعان وعدنان وإرم ، وإحياء هذا التراث القديم ، بعد أن سيطر الفكر الإسلامى أربعة عشر

قرنا كاملة على هذا العالم الواسع ، واستوعب فى أعماقه كل فكرة صائبة ونظرة صالحة من ذلك التراث القديم .

كيف انكشف الفساد ؟ :

وإذا كانت بعض الظروف قد أفسحت المجال لطرح النظرية القومية الوافدة حينا ، فانها لم تلبث أن تنكشف فسادها وغرابتها على الروح الإسلامية وأنها ليست منبعثة من وجودنا ، وليست تمثل قدرنا أو كياننا أو جوهر قيمنا .

إن أخطر ما وقع فيه هؤلاء الدعاة جميعا ، أنهم صدروا عن مفهوم وافد تشكل فى إطار المجتمع الغربى ، وواجه المسيحية الغربية ، وفاتهم اختلاف العلاقة بين العرب والمسلمين ، وبين مفهوم الإسلام كعقيدة تختلف عن المسيحية ، فى انها ليست نظرية لاهوتية او علاقة بين الله تبارك وتعالى والفرد ، ولا صلة لها بأنظمة المجتمع ، كما فاتهم أن الإسلام عقيدة ومنهج حياة .

ولأن القائمين بالدعوة كانوا غربيى الفكر . فقد فاتهم فهم حقيقة الإسلام الجامعة بين الدين والدولة ، وبين الدين والمجتمع ، وأنه حضارة وثقافة ومنهج حياة .

وبالجملة فإن دعاة القومية الوافدة قد جانبوا الأصالة والفهم العميق للإسلام والعروبة، وكانت محاولاتهم فى فرض مفهوم غريب دخيل وافد، محاولة مهدمرة، شأنها شأن المحاولات التى فرضت على الفكر الإسلامى من قبل ومن بعد، وقد أعلنت جميعها فشلها الكامل، كالديمقراطية والاشتراكية والوجودية وغيرها.

وشهد شاهد :

ويصدق فى هذا دارسان غربيان أولهما : « أرنولد توينبى » الذى يقول فى كتابه : « المسيحية بين أديان العالم » أن الشيوعية والقومية هما العدوين للأديان ، إذ هما شكلان مختلفان لموضوع فاسد ، ألا وهو عبادة الإنسان لنفسه.

ويقول « الفريد كانتول سميث » : « إن القومية المجردة ليست هى القاعدة الملائمة للنهوض والبناء وما لم يكن المثل الأعلى إسلاميا على وجه من الوجوه فلن تثمر الجهود ، وتاريخ الشرق الأدنى الحديث يدل على ذلك ».

بل إن مستشرقا آخر ينصح قومه بالتخلى عن طرح هذه

النظرية لفسادها ذلك هو « البرت حورانى » الذى يقـــول : « ليست القومية نظاما فكريا متكاملا ، ولكنها نقطة بداية تنظيم المجتمعات المتحدة ، فان الشرق العربى قد وصل إلى مرحلة ما بعد القومية » .

القومية العربية وهدفها :

وهذه حقيقة فإن السنوات الأخيرة قد كشفت عن فساد منطلق القومية ، وعجزها عن أن تحقق شيئا ، بل أنها قد سجلت على نفسها ذلك الأثر السيء العميق ، الذى أخر نمو الوحدة الإسلامية ، التى هى الطريق الأصيل للالتقاء الجامع ، تحت لواء العقيدة والمنهج ، وقد تبين أن « القومية أيديولوجية غربية » كانت فى ابتدائها بالغرب تستهدف تحطيم الوحدة المسيحية الجامعة ، التى كانت تشكل أطارا عاما فى الغرب ضد اليهودية ، التى كانت تعيش فى أحياء الجيتو دون أن تختلط بالحياة الاجتماعية الغربية ، وقد رأت الدوائر الأجنبية التى طرحتها فى أفق العالم الإسلامى أنها يمكن أن تمزق وحدة العالم الإسلامى .

ولقد كانت القومية الطورانية ، قومية لا دينية تحمل لواءها

ضياء كوك ألب وأحمد أغادف ويوسف أشفورا ، وكانت تدعو إلى أمجاد طوران ، كما ظهرت القومية الفارسية ، لتنظم أمجاد فارس قبل الإسلام والسير على خط كورش وقورش ، أما القومية العربية فقد قادها لورنس عميل المخابرات البريطانية والصهيونية معا ، وأسلمها إلى مجموعة من دعاة التغريب وتلاميذ الاتحاد والترقي العرب .

هوية دعاة القوميات :

وكان كتابها ودعاتها يحملون العداء لكل ماهو إسلامى . وقد اختلفوا فى كل شىء ، واتفقوا على شىء واحد هو رفض الإسلام ، عقيدة وتاريخا ، وحضارة ، وأعلنوا عداوتهم للتراث والأمجاد التاريخية وللفصحى ، وحين أعلنوا أن مقومات القومية هى اللغة والتاريخ فاتهم أن اللغة هى الفكر والمعتقد ، وأن التاريخ لا يفصل بين العروبة والإسلام وأن الإسلام جنسية ووطن بكل معنى الكلمة لها ركائزها من اللغة والمشاعر المشتركة ووحدة الهدف .

ولأن الإسلام هو الذى حمى الوطن العربى من الصليبيين ،

بعد أن أقاموا أربع إمارات صليبية لهم على ساحل الشام ، جاء صلاح الدين المسلم الكردى لينقذ العروبة من وهدتها ، وقد أكمل هذا الدور قطز وبيبرس ، وهما من المسلمين لا العرب . لقد جاء بعد صلاح الدين الكردى ، المماليك الذين حموا الأرض العربية من التتار وقضوا على بقية معاقل الصليبيين .

وفى الجزائر التى وصفها الفرنسيون بأنها فرنسا الجنوبية ، كان الإسـلام ، وليست اللغة العربية هى التى حمت الأمة مائة وثلاثين عاماً بعد أن تحطمت اللغة والثقافة ، ولولا القرآن ما كانت هناك قوة فى الأرض تستطيع أن تحمى اللغة العربية فى الأرض الجزائرية بعد أن ظلت تتعرض لحرب منظمة مدى قرن وربع قرن من الزمان . ولا ريب أنه حيث يسقط الإسلام يسقط العرب ، وأن العرب بغير الإسلام لا شىء ، فهو الذى شكلهم وأقامهم كأمة ، وهو الذى رفع أعلامهم على مشارف القارات الثلاث .

طبيعة التكوين الأصيل :

ولا ريب أن نظام الإسلام قد كون رجالا عرباً وعجماً

لتكوينا نفسياً وعقلياً فصدروا عن حركتهم التاريخية ، عن هداه وسننه، وحيث لم يناقض الإسلام المقومات الجنسية، وترك لكل أمة شخصيتها النابعة من التطورات المختلفة عبر القرون، بل لقد حافظ على الكيان الخاص لكل بنية .

التفسير القومي تفسير جزئي :

ولا ريب أن التفسير القومي جزئي وناقص ، ومناقض للحقيقة التاريخية الجامعة ، ومناقض فى نفس الوقت لعموم الرسالةالتى لا تعترف بالحركات القومية الضيقةالأفق ، ولا ريب أن الإسلام يمكنه أن يظل حياً بدون العروبة ولكن العروبة وحدها عاجزة عن إثبات وجودها ، ومعنى هذا أن الإسلام قوة دافعة للعروبة وليس قطاعا منها ، بل هو سبب قوتها وتماسكها وبقائها، كما أنه ليس حربا عليها. وأن أى محاولة للفصل بينهما، يسىء إلى العروبة أكثر مما يسىء إلى الاسلام .

منزل الوحى:

وقد شرف الله تبارك وتعالى أرض العروبة فجعلها منزلا

لوحيه وقرآنه ومنبتا لخاتم رسله ، وقد امتزجت العروبة بالإسلام امتزاجاً قوياً ، جعل غير العرب ينظرون على أنهما شيء واحداً وقد وقف القرآن الكريم سداً منيعاً لحماية اللغة العربية من الذوبان والانصهار في اللهجات .

ولقد كانت كل مشروعات تبسيط اللغة العربية تهدف إلى القضاء على القرآن ، بينما وقف القرآن سدا منيعا مستعصيا على التحريف والتصحيف .

من المجاهدين الأول :

وفى مراجعة مع السيد « محب الدين الخطيب » رحمه الله . حول مفهوم العروبة أبان حركتهم بعد الحرب الأولى قال :

إن مفهوم العروبة ومفهوم الإسلام لم يكونا منفصلين وكانت العروبة تعنى إرتباطها بالإسلام ولا تنفك عنه ، ومفهوم الإسلام أنه قام ويقوم بالأمة العربية الأولى التى لم تكن منفصلة عن أرضية الفكر الإسلامى ، وإنما كانت حلقة من حلقاته ، وإذا كان دعاة الفكر الإسلامى قد عملوا فى جانب العروبة فى هذه الفترة ، أى

بعد الحرب العالمية الأولى ، فمعنى هذا أنها قد أصبحت هى القلعة التى جرى من خلالها العمل لمقاومة الاستعمار والنفوذ الغربى وحركة التغريب والغزو الثقافى .

وقد حرص الاسلاميون على الربط بين مصر العربية ومصر الاسلامية، وكانت لهم وذلك نظريه دقيقةو ضحةأما الفرعونية والفينيقية والبربرية ، فقد كشف الأبحاث من بعد عن أنها فروع من العروبة وأنه لا تضارب بينها ، فهى موجات خرجت من الجزيرة العربية . واستقرت هنا وهناك على طول الأرض العربية وعرضها ، وأن محاولة الاستعمار فى استخدامها للتفريق كانت باطلة .

تجربة مريرة:

ويصور هذه الرحلة الاستاذ « إدريس الكتانى » فى بحث مطول فيقول : « أنها كانت تجربة مرة عاشها العرب منذ الحرب العالمية الأولى ، وتمثلت فى اتجاه كثير من الزعماء والأحزاب ، لدوافع واسباب مختلفة لخلق إطار موحد للعمل يكون اساساً للنهضة العربية ، ويجمع شمل الأمة العربية ، وقد قبل العرب هذا

الاطار باعتبار انه مجرد غطاء خارجى لمحتوى اساسى هو الاسلام، ولكن هذا الاتجاه تطور فيما بعد ليجعل « الغطاء » يحل محل المحتوى، وبدأ الناس يبحثون عن فلسفة خاصة وهكذا أصبحنا نحن الذين أيدنا (القومية العربية الاطار) نراها تتحول إلى المذهب ورغم أنها لم تتمتع بالتأييد لزمن أطول، ولو أنها استطاعت أن تحقق اقل قدر من النجاح لاثبتت اصالة بنائها، وأنها قامت على ارض صلبة لا على كثبان من الرمال، ولقد عجز مذهب القومية ان يخلق فى نفوس اصحابه شيئا من هذا الايمان او قليلا من التضحية .

بعد أن دفعنا الثمن:

هذه الوحدة العربية لم تتحقق حتى بين دعاتها وأنصارها الذين اتخذوها شعارا لهم، ولم تحقق شيئاً للعرب المؤمنين بها، ومعنى هذا أن تجربة هذا المذهب تكون قد استنفذت غرضها، بعد أن ادى العرب ثمن فشلها غاليا، وينفتح الباب أمام الإسلام من جديد برحاب جدد من العرب أنفسهم، وينضى العرب إلى تحقيق وحدتهم ولكن باسم العقيدة التى وحدتهم أول مرة، وباسم العقيدة سيواصلون معركتهم على واجهتين .

ضد التخلف داخل الوطن الأكبر، وضد الاستعمار والصهيونية في كل مكان في الأرض وعندئذ يكون عصر اليقظة الإسلامية قد انتهى، ويبدأ فجر النهضة وشروق شمس الإسلام من جديد على العالم».

وقال: «إن هناك مراحل قطعها الاستعمار والتغريب في تعويق الإنتقال من اليقظة إلى النهضة: منها الأقليمية والقومية والماركسية والقانون الوضعي والنظام السياسي الغربي والتعليم بمناهج الغرب العلمانية، ومحاولات تخذيل الفصحى لغة القرآن».

سقطت المحاولة وسقط البديل:

ولقد سقطت تلك المحاولات، التي كانت تستهدف أن تجعل القومية بديلا عن دين الله ورسالة محمد ﷺ لأنها أرادت أن تفرغ العروبة من محتواها الإسلامي، أمة وعقيدة وأرادت أن تقيم قومية حاقدة منفصلة مغلقة عن أرض الإسلام كما هي مغلقة عن قيم الإسلام نفسه، فيها المفهوم المادي الوثني، وفيها أحقاد الامم، حيث أن مفهوم الإسلام لا يفصل بين الدين والدولة، ولا يعرف حكومة إلهية ولا يعرف تفرقة بين الناس على أساس من العنصر والعرق.

تيار غزو ثقافى :

وبالجملة فإن الفكرة القومية كانت تيارا من تيارات الغزو الثقافى ، استحدث أساليبه بعد أن سقطت دعوى الوطنيات والاقليميات ، وكانت مهمته تفريغ القضية السياسية والاجتماعية بوجه عام من المحتوى الإسلامى ، واحلال فلسفة أخرى وعقيدة أخرى محل عقيدته . واستبدال رابطة أخرى برابطته ، لعزل الشعوب الإسلامية بعضها عن بعض عزلا نهائيا ، بحيث تكون صلة بعضها ببعض كصلتها بأى شعب من الشعوب الأخرى التى تدين بالوثنية والماركسية وبذلك تنسف الجسور التى تصل بين الشعوب الإسلامية .

ولقد كان طرح فكرة القومية العربية عامل التمهيد لطرح فكرة القومية الصهيونية ومجالا لظهور دعوة إلى القومية الكردية ، وغيرها من قوميات ، وكان أخطر ما هنا لك محاولة دعاة القومية إلى إيجاد منهج اشبه بالدين يحل محل الإسلام ، وتلك دعوتهم إلى إيجاد نظام نظرى شامل يستوعب الحياة الإنسانية بأكملها ، فلا يخرج عن دائرته قطاع ما من قطاعات الوجود البشرى ، وصياغة عقيدة قومية كلية تضاهى فى كليتها وشمولها الفكرة

الشيوعية ، أى أن الهدف الحقيقى هو إحلال القومية محل الإسلام وأن يصبح العرب بين خيارين : ما الشيوعية أو القومية المادية الوثنية ، وكأنما أبعد الحق الأصيل وهو الإسلام الذى يحمل المنهج الأصيل ، والذى يقاوم زيف الشيوعية والذى تعجز القومية مهما أوتيت من قوة أن تحققه وهى تركيب مفتعل معارض للفطرة الإنسانية ، مجاف لطبيعة الحياة وقد سموا هذا الخليط الزائف (عقيدة قومية) .

والسؤال الآن :

هل استطاعت الفكرة القومية الوافدة أن تحتوى مفهوم العروبة والإسلام ؟ ؟ والواقع أن مضمون الفكرة القومية عند أمم الغرب كانت على الدوام مقترنة بفكر التفوق الشعبى واحتقار الأمم الأخرى ، وهو معنى لا يقره أى مسلم أو يرضاه ، كذلك فقد عارضت الفكرة القومية الوافدة مفهوم الإسلام ، واعتبرته دينا لاهوتيا — وهو ليس كذلك — بل هو منهج حياة ونظام مجتمع ، ولقد كشفت الدراسات عن أن نظرية القومية الغربية هى دعوة عنصرية تستهدف قطع الروابط والصلات الجامعة بين

للمسلمين ، وتفريق الأمة الإسلامية إلى كيانات فضلا عن عملهم فى عزل العرب عن التاريخ الإسلامى ببطولاته ومواقفه ، وحصرها فى التاريخ الاقليمى ، وكذلك عزل الأدب العربى الحديث عن الأدب الإسلامى ، وفرض مناهج التفكير الغربى فى السياسة والاقتصاد والقانون والتربية ، وهذه كلها محاولات تستهدف تفريغ العرب من إسلامهم ، ولقد سقطت هذه المحاولات سقوطا تاما ، وتنبه العرب إلى اهداف المؤامرة ، ويكفيهم أن مفكروا العرب قد كشفوا هدفها وزيف وجهتها .

والمعروف عندما ظهرت هذه الدعوة عارضها جماعة من المفكرين الاسلاميين يومئذ ، بدعوة مضادة تحت شعار الجامعة الاسلامية باركها وأيدها السلطان عبد الحميد « المفترى عليه » رحمه الله ، وكان من دعاة هذه الفكرة الامام محمد عبده رحمه الله .

وسقطت نظرية ساطع الحصرى :

حدثنى الدكتور مختار الوكيل مدير مكتب الجامعة العربية فى جنيف . . وهو رجل صادق مؤمن أنه فى خلال عمله زار الاستاذ ساطع الحصرى سويسرا ورأى السيد عبد الفتاح حسن السفير

المصرى دعوته إلى طعام الغداء فلما قدم مع الدكتور الوكيل حياه السفير المصرى فقال :

« مرحباً بالمناضل الكبير فى خدمة العروبة والاسلام » وقد عجب الرجلان من ساطع الحصرى الذى رد فى عنف وحدة :

« عرب نعم . . إسلام لا . . أنا لاييك ، أنا لاييك » .

وكلمة « لاييك » تعنى أن صاحبها علمانى أو لا دينى .

ماتزال ندوة الاعتصام تركز على تاريخ الاسلام والعرب المعاصر ، وعلى الأعلام البارزين : سعد زغلول ، لطفى السيد ، ساطع الحصرى الخ .. وقد أحرز ساطع الحصرى شهرة وافرة فى سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية باعتباره « فيلسوف القومية العربية » حيث روج لنظرية خطيرة كانت بعيدة الأثر فى حجب مفهوم العروبة الأصيلة المرتبطة بالاسلام .. فكراً وعقيدة ، وبالعالم الاسلامى تكاملا وأخاء .. لقد كان دعاة حركة اليقظة فى البلاد العربية يرون أن الجامعة الاسلامية قائمة بين العرب والمسلمين (فرسا وتركا) بعد زوال الدولة العثمانية . . ولكن ساطع الحصرى كان من أوائل الدعاة إلى فصل العرب من المسلمين

بمفهوم القوميه الغربى الوافد الذى طرحه فى أفق الفكر السياسى العربى .. وهذا يرجع إلى أن ساطع الحصرى كان ثمرة من أنضج ثمار المدرسة الاتحادية التركيه ، وأكبر الدعاة الذين نقلوا مفهوم القومية الطورانية التركية إلى أفق العروبة التى كانت ترتبط بمفهوم الاسلام فى العلاقة بين الشعوب التى جمعها التوحيد والقرآن ونبوة محمد ﷺ ، والفكر الاسلامى الأصيل .. لقد كان ساطع الحصرى مديراً للتعليم فى الدولة الاتحادية التى حكمت تركيا بعد إسقاط السلطان عبد الحميد بمفهوم العلمانية والطورانية . . وقد تعلم فى مدرسة الاتحاديين ، وآمن بفلسفتهم ، ونقل فكرهم ومضامينهم إلى العرب ، وذلك فى سبيل تمزيق الوحدة الاسلامية الجامعة عرباً وتركا وفرساً ، وخلق أسلوب القوميات والاقليميات التى تقوم على الصراع والاستعلاء بالجنس والعنصر .. وهو أول من حمل لواء العنصرية والعرق والدم بديلا لمفهوم الاسلام الذى يقوم على الاخاء الانسانى وقد كان فلاسفة الفكر القومى التركى من الاتحاديين تلاميذ الفلسفة الوضعية متعصبين بالنزعة الطورانية المدوانية ، وقد استمد ساطع الحصرى مفهومه للعروبة من مفهوم القومية الغربية ، والنظرية التى طبقها الاتحاديون فى تركيا وقد ركز على اللغة والتاريخ وعزلهما عن الفكر الاسلامى الجامع

ككل، كما ركز طه حسين على الأدب وعزله عن وحدة الفكر الاسلامى .

ونظرية ساطع الحصرى التى روجت لها بعض الاحزاب السياسية العربية قد أثبتت خلال أكثر من ثلاثين عاماً فشلها الذريع وعجزها عن العطاء . . لأنها فرغت مفهوم العروبة من قيمه وتاريخه وعناصره الأخلاقية والروحية وجعلته مفهوما مادياً خالصا . . وقد اعترف ساطع الحصرى بأن إسرائيل قومية تقوم على الدين ورفض اعتبار الإسلام مقوما بوصفه دينا . . ذلك أن مفهوم ساطع الحصرى للإسلام ناقص ، فهو يراه ديناً لاهوتياً وليس ديناً ومنهج حياة ، ونظام مجتمع على النحو الذى يؤمن به دعاة العروبة الإسلامية . . لقد فهم الاسلام على أنه « دين عبادى » كما فهم الأوربيون المسيحية ، ولم يفرق بين الدين بعامة والاسلام بخاصه ، ولم يفرق بين العصر والبيئة والجذور الثقافية التى يختلف فيها عن مفهوم القومية فى أوربا . ولقد كان مفهومه للعروبة ناقصاً ، فلم يصل إلى مفهوم العروبة المترابط مع الاسلام هذا الترابط الجذرى الذى لا سبيل للإنفكاك عنه .

ويرى كثير من الباحثين أن ساطع الحصرى لم يعايش المناخ

العربى قبل أن يضع مجموعة آرائه ، وأنه استهدى بمناخ البلقان والنظريه الالمانية فى حركته القومية التى رفع فيها شعار اللغة فى مواجهة الدولة العثمانية للتحرر منها ، وأنه كان حاقداً على العثمانيين حقد المحافل الماسونية التى احتضنت الاتحاديين ووجهتهم وجهتها ودفعتهم إلى الدعوة إلى الذئب الاغبر كرمز لها بديلا للقرآن .
وقد كان أكبر أساتذته فى مفهوم القوميات « ماكس مولر » ونوردوا ، وهما فيلسوفان يهوديان قصدا من وراء نظرية اللغة إلى إحياء القومية اليهودية . وقد اعتبر ساطع الحصرى اللغة أساس القومية ، وعارض نظرية الأرض التى دعا إليها أنطون سعادة دون أن يتنبه إلى أن الفكر لا اللغة هو مصدر الوحدة .

وقد أجرى ساطع الحصرى الجدل حول عديد من النظريات الأوربية فى القومية دون أن يواجه جوهر المفهوم العربى : الإسلامى المصدر والجذور ، هذه الجذور التى تجعل من العسير فصل اللغة عن الفكر واعتبارها مقوما منفصلا ، أو الإعتماد على نظرية بقاء اللغة أو ضياع اللغة ، مع أن الأساس هو بقاء العقيدة والفكر الذى يحمى وجود الأمة الحقيقى ، والواقع أن ساطع الحصرى كان غربى الفكر أساساً ، بل وغربى الذوق أعجمى النطق ، وأن تركيبه الثقافى والإجتماعى كان يحول بينه وبين تبنى نظرية

عربية أصيلة مستمدة من واقع الأمة العربية وكيانها ، وذاتيتها وقيمها التى لا تنفصل فيها اللغة والتاريخ عن الفكر نفسه ، وفى ذلك مغالطة أو جهل . ذلك أن اللغة العربية ليست لغة أمة فحسب ولكنها فى نفس الوقت لغة فكر وعقيدة فإذا كان العرب وهم مائة مليون يتحدثون بها فإنها لغة العقيدة والفكر لآلاف مليون من المسلمين مرتبطين بالقرآن الكريم ، والسنة الشريفة ، وذلك التراث الضخم من الفقه والعلم والتاريخ . وأن اللغة لا تنفصل عن الفكر وأن تاريخ العرب لا ينفصل عن تاريخ الإسلام ، ومرجع ذلك إلى أن ساطع الحصرى نشأ — كما ذكرنا — فى بيئة الاتحاديين الأتراك الذين كانوا صنائع الفكر التلمودى ، والذين نشأوا فى أحضان المنظمات الماسونية ، وحملوا لواء الإيمان بالفصل من الدين والمجتمع ، وفهموا الإسلام فهماً غريباً على أنه دين لاهوتى ، وعلى هذا الفهم الخاطىء القاصر قامت نظرية ساطع الحصرى التى لمعت سنوات تحت تأثير الخداع والأهواء ، حتى أن بعض دعاة الماسونية فى العالم العربى راح يفسر عن طريقها تاريخ الإسلام كله ، فيرى أنه تاريخ قومى عنصرى عربى ، ومن ثم وجهت عبارات الحقد والخصومة إلى الأمم الإسلامية ، وهذا هو الثمرة الحقيقية التى كانت تهدف إليها حركة الغزو الثقافى

والتغريبين من طرح هذه النظرية القومية ، الإقليمية الضيقة العدرانية الوافدة ، بديلا عن المفهوم الأصيل للعروبة فى إطار الإسلام كما كان يفهمه شكيب أرسلان ورشيد رضا ومحب الدين الخطيب وحسن البنا ومصطفى السباعى ومحمد المبارك .

هذه النظرية المضطربة التى خدع بها ساطع الحصرى الكثيرين والتى سايرها كثير من المثقفين قبل أن يعرفوا سمومها العميقة .. فلما عرفوها هاجموها وكشفوا زيفها ، والنظرية مضطربة من أساسها ، ولو كان ساطع الحصرى حسن النية لصحح موقفه من فهم الدين فهماً غربياً لاتكيا وفهم الإسلام بمعناه الجامع بين العقيدة ونظام المجتمع . لقد اعتمد أساس نظرية مفهوم الدين اللاهوتى بمفهوم أوربا والغرب للدين ، ولذلك عجزت النظرية أن تنجح فى إطار الفكر الإسلامى ، بل أن كل العناصر التى عالجها كانت عناصر البيئة الغربية فى مواجهة الصدع بين الجامعة المسيحية الأوربية وبين القوميات الأقلية والتى كانت وراءها اليهودية الصهيونية لتمزيق هذه الوحدة والسيطرة على كل قطر على حدة ، وهو نفس ما أرادته بالنسبة للجامعة الإسلامية لتركية التى وقفت أمام دخول الصهيونيين إلى فلسطين ، وموقفهم من السلطان عبد الحميد واضح معروف .

أن كل التحديات التي تعالجها نظرية القومية الوافدة لا توجد أساساً في المناخ الإسلامي ، هذا فضلا عن اختلاف مفهوم (العروبة) عن مفهوم القومية في الغرب فضلا عن اختلاف مفهوم الإسلام عن مفهوم الدين بصفة عامة .

ومصدر خطأ ساطع الحصري أنه عجز عن فهم أبعاد الفكر الاسلامي وأعماقه ، وعلاقة العرب بالاسلام ، وعاش في مؤلفاته خادماً لنظرية القومية الاوربية الوافدة التي قدمها النفوذ الاجنبي من بين ما قدم ليحطم الوحدة العربية الاسلامية الجامعة بعد أن عجز عن فرض الاقليمات القائمة على التاريخ القديم كالفرعونية والفينيقية والاشورية والبابلية . ولما رأى هذه المحاولات تتهاوى ورأى أن العرب يتجهون إلى الوحدة أراد أن يفرغ هذه الوحدة من مضمونها العقائدي الجامع بين الروح والمادة ، والعقل والقلب ، والدنيا والآخرة إلى مفهوم إقتصادي مادي صرف وبذلك فشلت نظرية القومية الوافدة كما فشلت مناهج التعليم الغربي والقانون الوضعي ، وأسلوب التنظيمات السياسية الليبرالية وغيرها.

ولقد وقف ساطع الحصري في وضوح موقف الخصومة والحقد والتعصب على الاسلام كلما عرض له ، وقد تجاهله طويلا

فى أبحاثه كأن العرب لم يعرفوه خلال تاريخهم الطويل ، وكانت محاولاته للفصل بين اللغة العربية والفكر الاسلامى من ناحية، وبين تاريخ العرب وتاريخ الاسلام محاولات ساذجة. ثم كشف نفسه وأسقط مكانته كاملة حين اعترف بالقومية اليهودية القائمة على الدين، بينما عارض عنصر الدين فى مفهوم القومية العربية وإن كانت كلمة (دين) لا تؤدى معنى الاسلام حين يكون البحث حول العروبة .

وقد ثبت أن ساطع الحصرى قد خدم بدعوته وفكره مفاهيم الماسونية والنظرية القومية الوافدة التى كان النفوذ الغربى حريصاً على تلقينها للعالم العربى، وهى ليست إلا صورة من مفهوم الاقليمية اللبنانية ، والمعروف أن ساطع الحصرى كان من أعمدة وزارة المعارف فى تركيا منذ أوائل حكم الاتحاديين فى تركيا العثمانية إلى أن انتهت الحرب الأولى ، وأنه كان من أخطر الموجهين للبرامج التربوية والتعليمية فى العراق ، حيث عمد إلى فصلها عن الاسلام فصلا تاماً ، وكان دوره أشبه بدور الدكتور طه حسين فى التعليم المصرى .

لقد حاول ساطع الحصرى أن يقيم (فكراً عروبيا إقليميا) منفصلا عن الاسلام فى روحه ومضامينه وشريعته . . ولقد

تماهل أعماق الأثر الذى تركه الاسلام فى الفكر والثقافة ، واللغة والتاريخ ، وتماهل أثر القرآن الكريم فى اللغة العربية وفى العرب ومدى ترابط ذلك إلى أكثر من ثلاثة آلاف سنة بالأمة الوسطى الحنيفية السمحاء التى جاء بها إبراهيم عليه السلام فربطت هذا العالم الوسط (عالم العرب والاسلام) بروابط تاريخية وثقافية عميقة دعمتها الأديان السماوية التى نزلت فى أرض الرافدين ، وختمتها رسالة الاسلام العالمية التى نزلت فى الجزيرة العربية . للعالمين كافة .

رقم الإيداع ٢٢٤٧ / ١٩٨٠

مطبعة دار البيان ـ بعابدين